الموارية .... والبلاغة العربيّة

الدكتور محمد هيثم غرّة*

الملخّص

من يتتّبع مصطلح (الموارية) في المعجمات اللغوية أو البلاغيّة وهي دائماً تحمل معنى الدهاء والمخاتلة والكذب والمغالطة، ومن يمعن النظر في شواهدها والأشعار التي يضربونها أمثلة عليها، يرفض أن يكون هذا المصطلح ذا صلة بالبديع أو بالبلاغة العربية التي عرفناها عند العرب متّسمة بالوضوح والسلامة وعدم التكلّف أو التعسّف.

وهذا البحث يقف أمام مصطلح (الموارية) مظهراً عوراته وعيوبه، ومفنّداً آراء البلاغيّين فيه من خلال تأنّيه في قراءة الشواهد المتعلّقة بذلك.

وهذه الشواهد لا تتجاوزعدد أصابع اليدين مكرورة معادة، بعضها مصنوع وأكثرها لا ينطبق عليه تعريف الموارية حتّى من قِبل أصحاب المصطلح أنفسهم مثل الخطيب التبريزي وابن أبي الإصبع المصري والسيوطي وغيرهم.

وقد رأى البحث استبعادَ هذا المصطلح من دائرة الأنواع البديعيّة التي كانت أحياناً كثيرة وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، وضمَّ شواهده إلى ما ذكره الأقدمون كابن رشيق القيرواني وأبي هلال العسكري في باب سرعة البديهة وسلامة الارتجال.

وبيّن أنّ بلاغة العرب وفصاحة لسانهم وجمال الأسلوب وسلامة التفكير عندهم كلّ ذلك يباين الموارية ويراها على النقيض.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

الموارية ... والبلاغة العربيّة

لبلاغة العرب في تراثهم تعريفات متنوّعة وحدود كثيرة، لعلّ من أبرزها وأشيعها أنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[1]، وكأنّ هذا التعريف ذو شقّين، الأوّل مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والثاني فصاحة هذا الكلام.

والكلام هو المادّة الأولية للبلاغة، وحتّى يستحقّ أن يُدرج في تعريف البلاغة المذكور لابدّ من أن يكون واضحاً، فبوضوحه يطابق مقتضى الحال، وبوضوحه يمكن أن يوصف بالفصاحة، وهي المأخوذة في اللغة من فصح اللبن إذا خلا وجهه من الرغوة، واليوم المفصح الذي لا غيم فيه[2]، والكلام إذا خلا من الشوائب والعيوب فغدا جلياً واضحاً ظاهراً لا لبس فيه ولا غموض.

يقول الجاحظ (البلاغة وضوح الدلالة... وجماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول وقلّة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض)[3].

ويقول بشر بن المعتمر: البلاغة (أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً)[4].

وما ينسب إلى أبي تمّام حين سأله سائل: لماذا تقول ما لا يُفهم فأجاب أبو تمّام: لماذا لا تفهم ما أقول، جواب غير جائز من الناحية البلاغيّة، لأنّ البلاغة قائمة على العناية بالقرّاء والمتلقّين ومطابقة الكلام لمقتضى الحال كما ذُكر قبل أسطر، والوضوح أهمّ سمات الأسلوب إلى جانب الدقة[5].

---

1 - تلخيص المفتاح 33.

2 - لسان العرب: فصح.

3 - البيان والتبيين 88/1.

4 - نفسه 136/1.

5 - ينظر الأسلوب للشايب 187.

فما فضل قول مبهم لا يفهمه المخاطب، وما قيمة الكلام إذا لم يُبيّن؟ وكان قد يرد في كلام العرب كلام مبهم لكنهم سرعان ما كانوا يلجؤون إلى بيانه وتوضحيه فجاء عندهم وفي بلاغتهم ما يسمّى (البيان بعد الإبهام) في موضوع الإطناب، وجاء عندهم ما يسمّى بالإيضاح (وهو أن يذكر المتكلّم كلاماً في ظاهره لبس ثمّ يوضحّه في بقيّة كلامه، كقول الشاعر:

يذكّرنيك الخيــر والــشرّ كلّــه وقيلُ الخنا والعلــمُ والحلــمُ والجهــلُ

فإنّ هذا الشاعر لو اقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع لجمعه بين ألفاظ المدح والهجاء، فلمّا قال بعده:

فألقاك عن مكروهها متنزّهــاً وألقاك فــي محبوبهــا ولــك الفــضلُ

أوضح المعنى المراد ورفع اللبس وأوضح الشك[6].

ثمّ إنّ اعتمادهم على التعريف المختار – قبل قليل- يوجب أن يكون الكلام صادقاً لا تكلّف فيه ولا تعسّف، ولأمر ما كانوا يعتدّون بقول حسّان ابن ثابت[7]:

وإنّ أحسن بيــت أنــت قائلــه بيــت يُقــال إذا أنــشدته صــدقا

يقول ابن البناء المراكشي: (اعلم أنّ المحمود في جميع أساليب البلاغة إنّما هو ما لا يظهر فيه التكلّف ولا يكون مطلوباً بالتعسّف ... وحسن معنى الكلام وصلاحه إنّما هو ببنائه على الصدق وقصده إلى الجميل وظهوره بالبرهان)[8].

6 - تحرير التحبير 559.

7 - ديوانه: 1 /430.

8 - الروض المريع 173 – 174.

أردتُ من خلال ما سلف من كلام أن أثبّت في الأذهان شرط العرب في البلاغة وأؤكّد ما درجوا عليه فيها وهو أن يكون الكلام واضحاً.

والمعروف أنّ البديع أحد علوم البلاغة العربيّة، وقد عدّ قوم فنون البديع من وجوه إعجاز القرآن الكريم لما لها من أثر في جلال المعاني وجمال الألفاظ.

لكنّ البديع الذي بدأه ابن المعتزّ بخمسة فنون وهي الاستعارة والتجنيس والمطابقة وردّ أعجاز الكلام على ما تقدّمها والمذهب الكلامي[9]، وصل عند المتأخرين إلى أكثر من سبعمئة نوع[10]، علماً أنّ المعتمد عند السكاكي منها سبعة وعشرون، وعند القزويني سبعة وثلاثون من أنواع البديع المعنوي واللفظي. وذكرتُ السكاكي والقزويني دون غيرهما لأنّ حدود البلاغة العربيّة القديمة وقفت عندهما وبقيت ثابتة كما جاءت في كتبهما إلى وقت قريب.

لكنْ ذُكر عند بعض البلاغيّين وجوه في البديع ينبغي التوقّف عندها، يقول التفتازاني: (وبقيت أشياء يذكرها في علم البديع بعض المصنّفين، منها ما يتعيّن إهماله ويجب ترك التعرّض له لعدم كونه راجعاً إلى تحسين الكلام البليغ)[11] ربّما كان منها التلفيق والإلغاز والمعمّى والمغالطة والمواربة ...، وقد تلتفّ أقسام البديع عند المتأخّرين بعضها ببعض فتتركّب وتتداخل، وهي (وإن كانت قريبة المأخذ سهلة المدرك لكن لا يتعلّق بها كبير بلاغة ولا عظيم فصاحة)[12].

---

9 - البديع لابن المعتز ص 2 و 3، والبديع عنده ذو معنى أوسع من وجوه البديع المعنوي واللفظي المعروفة عند المتأخرين.

10 - انظر الصبغ البديعي للشوكاني 465.

11 - الحاشية على المطوّل 424.

12 - الطراز 3 /62.

وأنا أقف في هذا البحث عند مصطلح المواربة وعلاقته بالبلاغة مذكّراً بأنّ أعمدة البلاغة العربيّة لم يذكروها في مؤلّفاتهم ولا أشاروا إليها، ولو كان لها شأن لفعلوا، وعندما ذكرها الجاحظ ذكرها في معرض الإنكار والذمّ والاستهجان منزّهاً أفصح الناس عن أن يستعملها، فهو إذ يصف بلاغة النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: كان (لا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز...)[13]، وهو استعمال لغوي للمواربة كما يُرى.

والمواربة في لغة العرب المداهاة والمخاتلة، قد تكون من الإرب وهو الدهاء أو من الورب وهو الفساد، وفي الحديث: إن بايعتهم واربوك أي خادعوك[14].

وحقيقتها في الاصطلاح أن يقول المتكلم قولاً يتضمّن ما يُنكر عليه فيه بسببه ويتوجّه عليه المؤاخذة، فإذا حصل الإنكار استحضر بحذقه وجهاً من الوجوه التي يمكن التخلّص بها من تلك المؤاخذة. إمّا بتحريف كلمة أو بتصحيفها أو بزيادة أو نقصان[15].

وقد جعلها التبريزي واحداً ممّا يجب معرفته من صنعة الشعر إلى جانب التطبيق والتجنيس والموازنة والمبالغة وأنواع البديع الأخرى[16]، وهي عنده (أن يقول الشاعر في مديح أو هجاء أو وصف، فإن أنكر عليه المديح بعضُ أعداء الممدوح ممّن يخافه ... غيّر المعنى بلفظه إلى ما يتخلّص به أو زاد شيئاً أو نقص[17].

13 - البيان والتبيين 17/2.

14 - القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس: ورب.

15 - تحرير التحبير 249، وبديع القرآن 94، وخزانة الأدب 2 /253 ، وجوهر الكنز 235.

16 - الوافي في العروض والقوافي 257.

17 - نفسه 300.

والتغيير في المواربة إنّما يحصل في اللفظ ممّا يجعله من جهة الجناس، فهو بديع لفظي، ومنه قول اليهودي – مثلاً- : (السامّ عليكم) وهو يقصد (السلام عليكم) والسامّ هو الموت، ففي المواربة تتكشف عورات التلفيق والكذب، لذلك تجد الكلام فيها ممجوجاً ولو سيق لإرضاء الآمال والمطامع النفسيّة[18].

ووفق التعريفين المذكورين للمواربة – وهما يصبّان في نهر واحد- يمكن أن يكون قول عتبان الحروري الشيباني وهو يرى رأي الخوارج:

فإن يك منكم كان مــروانُ وابنُــه وعمــروٌ ومــنكم هاشــمٌ وحبيــبُ
فمنّا حــصينٌ والبطــين وقعنــبٌ ومنّــا أميــرُ المــؤمنين شــبيبُ

لمّا أُتي به إلى عبد الملك بن مروان – وفي رواية إلى هشام بن عبد الملك – قال له الأمير:

ألست القائل:

ومنّا أميرُ المؤمنين شبيبُ

فقال: لم أقل كذا يا أمير المؤمنين، وإنّما قلت:

ومنّا أميرَ المؤمنين شبيبُ

فنصب (أمير) مواربةً، فاستحسن أمير المؤمنين قوله وأمر بتخليته[19].

أقول: يمكن أن يكون هذا الشعر شاهداً على المواربة وفق التعريفين اللذين ذُكرا بما فيه من حسن تخلّص عن طريق التحريف وتغيير الحركة.

18 - البلاغة العربية 2 /469.
19 - الوافي 301 وأنوار الربيع 2 /300.

أمّا الشواهد الأخرى التي تذكرها كتب البلاغة فهي جميعاً شواهد مكرّرة بأعينها.

لم يُضف أحد فيها شيئاً على أحد، وأغلب الظنّ أنّ بعضها مصنوع لتأييد المصطلح وتأكيد قاعدته البلاغيّة:

الشاهد الأول:

قوله تعالى ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ [يوسف: 81].

جاء في بعض كتب التفسير والقراءات أنّ الكسائي وأبا رزين قرأا (سُرّق)، وهي قراءة شاذّة[20]، ومعناه رُمي بالسرق، كما يقال: ظُلّم فلان وخُوّن، قال أبو حاتم: ولم أسمع له إسناداً[21].

ثمّ ذكر بعض البلاغيّين وعلى رأسهم ابن أبي الإصبع أنّ في هذه القراءة (سُرّق) مواربة[22]. ففي بناء الفعل للمجهول إشارة إلى أنّ بنيامين أخا يوسف لم يسرق، فأتى بالكلمة مبدلاً الضمّة من الفتحة – على السين – مشدّداً الراء مع كسرها، وهذا معنى قولهم بالتعريف قبل قليل: (إمّا بتحريف كلمة أو تصحيفها)، وأخذ عن أبي الإصبع السيوطي[23] وابن معصوم[24] وغيرهما.

20 - كما في معاني القرآن 2 /53، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري 1 /715.

21 - يُنظر المحرّر الوجيز 1012 والبحر المحيط 5 / 337 وإعراب القرآن للنحاس 2 / 341 والإتقان للسيوطي 2 /69.

22 - بديع القرآن 94.

23 - الإتقان 2/ 96.

24 - أنوار الربيع 2 /300.

أقول: هذا ظنّ حسن، لكن القراءة كما ذكروا شاذّة، والقرآن الكريم هو حكاية عن تلك القصّة نزل بلسان عربي مبين حكاها بالعربيّة، وهي لم تجر بالعربيّة حتى ينطبق عليها المواربة.

والمواربة – كما ذكر- بديع لفظي (فالشرط الأول في البديع أن يكون وارداً في الكلام المنظوم من هذه الأحرف المعتادة أعني حروف العربيّة ...فلا يجوز دخوله إلاّ فيما كان مؤلّفاً منها من الكلمات العربية دون غيرها من الكلم الفرسيّة والعبرانيّة والتركيّة ...)[25].

الشاهد الثاني:

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28]،.

قال الزمخشري: كان هذا الرجل قبطياً (وهو ابن عمّ لفرعون آمن بموسى سرّاً، وقيل كان إسرائيلياً واسمه سمعان أو خربيل أو حزقيل ...)[26].

وجاء في أنوار الربيع أنّ قوماً وشوا إلى فرعون بأنّ هذا الرجل يعين أعداء فرعون على فرعون. فلمّا جيء به إلى فرعون قال لفرعون: هل جرّبت عليّ كذباً؟ قال: لا، قال: فسلهم من ربّكم؟ ...من خالقكم؟ ... من رازقكم؟ قالوا: فرعون. قال حزقيل: أيّها الملك فأشهدك وكلّ من حضرك أنّ ربّهم هو الله ربّي ... وخفي هذا المعنى على فرعون[27].

---

25 - الطراز 3 /210.

26 - الكشّاف 3 /368.

27 - ينظر أنوار الربيع 2 /304 – 305.

فقد عدّ ابن معصوم قول حزقيل من المواربة وهو ليس كذلك لأمرين: الأوّل أنّ سياق القصّة يتّجه نحو المعنى والمواربة بديع لفظي يُعتمد فيه على الصوت والجرس – كما تقرّر - لا معنوي، فهو خروج عن تعريف المواربة ومعناها البلاغي. والثاني أنّ القرآن يحكي تلك القصة حكاية فهي لم تجر بالعربيّة، ثمّ إنّني لم أقف عليها بهذا العرض في كتب التفسير، فما مصدر المؤلّف؟.

الشاهد الثالث:

حيث أنشد العباس بن مرداس رسولَ الله صلّى الله وسلّم:

أتجعل نهبـــي ونهــب العبيـــــ	ـــــد بـــين عيينـــة والأقـــرع
وما كـــان حـــصن ولا حـــابس	يفوقـــان مـــرداس فـــي مجمـــع
ومـــا أنـــا دون امـــرئ منهمـــا	ومـــن تـــضع اليـــوم لا يرفـــع

قال رسول الله: يا عليّ اقطع لسانه عنّي، فقبض عليّ على يده وخرج به فقال: أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟ فقال: إنّي لممضٍ فيك ما أمر.. ثمّ مضى به إلى إبل الصدقة فقال: خذ ما أحببت(28).

قال ابن أبي الإصبيع: فهذه أحسن مواربة سمعتها في كلام العرب. جعل قوله صلّى الله عليه وسلّم (اقطع لسانه عنّي) من المواربة، وليس الأمر كذلك، لأنّ هذه كناية عن الجزاء والعطاء.

فالعرب تقول (اقطع لسانه عنّي) كناية عن قولهم: كافئْه أو جازه خيراً، وله نظائر عندهم، فعندما قالت ليلى الأخيليّة في الحجّاج ما قالت، ثم وصلت إلى:

فما ولد الأبكارُ والعــون مثلــه	ببحـــر ولا أرض يجـــفّ ثراهـــا

28 - ينظر تحرير التحبير 251. والحديث في كنز العمال رقمه: 8623.

وأرادت أن تستمرّ في القول وأصرّت، قال الحجّاج: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له: اقطع لسانها، فذهب بها فقال له: يقول لك الأمير: اقطع لسانها، قال؟ فأمر بإحضار الحجّام فالتفتت إليه فقالت: ثكلتك أمُّك، أما سمعت ما قال، إنّما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. ففهمتْ ما لم يفهمه الغلام الأعجمي، بدليل أنّ الحجّاج بعدئذ قال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيّها الأمير إلاّ أنّا لم نر قطّ أفصح لساناً ولا أحسن محاورة ولا أرصن شعراً منها، فقال: هذه ليلى الأخيليّة ...[29] .

الشاهد الرابع:

ما روي عن السيّدة عائشة رضي الله عنها أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنّة، فقال: إنّ الجنّة لا تدخلها عجوز، ثمّ ذهب فصلّى ثمّ رجع فقالت عائشة: لقد لقيتْ من كلمتك مشقّة وشدّة فقال صلّى الله عليه وسلّم: إنّ ذلك يكون، إنّ الله إذا أدخلهنّ الجنّة حوّلهنّ أبكاراً[30].

يقول السيوطي (فهذه الكلمة البديعة – يقصد: إنّ الجنّة لا تدخلها عجوز - يحتمل أن تكون من الإبهام وهو بعيد ومن المواربة وهو قريب)[31].

أقول: أن تكون العبارة من باب المواربة وهم، لأنّ في المواربة من التعريف المذكور قبل صفحات ما يخرجها عن ذلك، وقد جعل السيوطي المواربة –قبل حديثه عن الشاهد بسطرين- مثل التوجيه المسمّى عنده الإبهام، ومثّل له بالبيت المشهور:

جاء مــن زيــد قَبــاءُ   ليــــت عينيـــه ســـــواءُ

29 - أمالي القالي 87/1.

30 - الحديث في الشمائل المحمّدية للترمذي ص 131 ذكر أنّه ضعيف.

31 - شرح عقود الجمان 128.

وكان زيد الذي خاط له القباء أعور، ولم يعلم أحد هل أراد الشاعر أنّ الصحيحة تساوي السقيمة أو العكس[32]، فالشطر الثاني يحتمل أنّه يتمنّى له العمى ويحتمل أنّه يتمنّى له الإبصار.

وليس في عبارة النبيّ (إنّ الجنّة لا تدخلها عجوز) ما يحتمل وجهين إن هو إلاّ معنى واحد، ومن يعرف تزاحم المصطلحات البلاغيّة في كتب السيوطي وخاصّة مصطلحات البديع يجد أنّه قد دخل بعضها ببعض أو دلّ بعضها على بعض، ومن ثمّ يلتمس له العذر في بعض ما ذهب إليه، ولو عدّه السيوطي من باب التورية أو الإيهام لسلم له ذلك، فليس في التورية كذب كالموارية وليس في الإيهام مخاتلة وخداع وإنّما يلجأ إليه المتكلّم لإيراد كلامه مورد التشكيك في اللفظ لضرب من المسامحة وحسن العناد[33]، لذلك يجعلون منه – من الإيهام- قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، على أنّ المعنى: وأنا أعلم أنّي على هدى وأنّكم على ضلال مبين، فهو قال عبارة لا يريد منها إلاّ معنىً واحداً وهو واضح لديه، وبقيت المشكلة في فهم الآخر لما يقوله المتكلم.

الشاهد الخامس:

لمّا أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان قوله:

لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعوّل
فإلا تغيّرها قريش بملكها يكن عن قريش مستماز ومزحل

32 - ينظر تحرير التحبير 597، وقد جعل السكاكي البيت من باب التوجيه (المفتاح 427).
33 - ينظر المنزع البديع 277.

قال عبد الملك: إلى أين لا أمّ لك؟ قال: إلى النار[34].

عدّ التبريزي جواب الأخطل (إلى النار) من باب المواربة، وجعله شاهداً عليها[35]، وكذلك فعل ابن أبي الأصبيع[36]، لكنْ لم يتحقّق تعريف المواربة في جواب الأخطل لا من قريب ولا من بعيد، والصواب أن ينضوي مثل هذا تحت عنوان (سرعة البديهة).

فقد ورد عند ابن رشيق القيرواني قصّة مشابهة لما ذكر قال: (يروى عن أبي الخطاب عمر بن عامر السعدي المعروف بأبي الأسد وقد أنشد موسى الهادي شعراً مدحه به يقول فيه:

يا خير من عقدتْ كفّاه حجرته وخير من قلّدتْه أمرها مضر

فقال له موسى: إلاّ مَنْ يا بائس؟ فقال واصلاً كلامه ولم يقطعه:

إلاّ النبيّ رسول الله إنّ له فخراً وأنت بذاك الفخر تفتخر

ففطن موسى ومن بحضرته أنّ البيت مستدرك ونظروا في الصحيفة فلم يجدوه فضاعف صلته، وجعل ابن رشيق جواب أبي الخطاب في باب سرعة البديهة[37].

ونقرأ مثلها فيما نقله عبد القاهر الجرجاني من قول النابغة الجعدي: أنشدتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قولي:

---

34 - ديوان الأخطل 33 وطبقات فحول الشعراء 413، والمستماز: المتنحّى، والمزحل: المذهب.

35 - ينظر الوافي 302 – 303.

36 - تحرير التحبير 250.

37 - العمدة 136.

بلغنا السماء مجــدنا وجــدودنا وإنّا لنرجو فــوق ذلــك مظهــرا

فقال النبي: أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقلت: الجنّة يا رسول الله فقال: أجل إن شاء الله[38].

فالأولى أن يُدرج هذا وأمثاله في باب سرعة البديهة، فليس له علاقة بالموارية.

الشاهد السادس:

الشاهد الذي يستحق أن يكون من الموارية بحسب تعريفهم لها لغة واصطلاحاً هو قول من قال:

لقد ضاع شــعري علــى بــابكم كما ضاع حلــي علــى خالــصه

والمراد كما يُذكر خالصة جارية الرشيد، ولمّا بلغ الرشيد ذلك أنكر على صاحب البيت وهدّده، فقال: لم أقل إلاّ:

لقد ضاء شــعري علــى بــابكم كما ضــاء حلــي علــى خالــصه

فاستحسن الرشيد مواربته، وقال بعض من حضر: هذا بيت قُلعت عيناه فأبصر[39].

فالشاعر وارب بين (ضاع) في البيت الأول و(ضاء) في البيت الثاني، وهذه الموارية موافقة لما جاء في تعريفات البلاغيّين لها بتحريف أو بتصحيف وهو من البديع اللفظي.

38 - دلائل الإعجاز 21.

39 - ينظر خزانة الأدب 2 /254 – 255، وأنوار الربيع 2 /302.

ولكنْ: ينسب المتأخّرون كابن حجّة والسيوطي هذا البيت لأبي نواس، وليس البيت في ديوان أبي نواس بكلّ طبعاته المعروفة[40]، فكأنّه مصنوع ليكون شاهداً على المواربة، وقد عُرف عن بعض العروضيّين – مثلاً - أنّهم صنعوا أبياتاً من الشعر تأييداً لظاهرة عروضيّة أو وزن من أوزان الشعر كالمضارع مثلاً.

الشاهد السابع:

لمّا بلغ المأمون أنّ عمرو بن أبي بكر العدوي قاضي دمشق قال:

برئت من الإسلام إن كان كــلّ مــا أتاك به الواشــون عنّــي كمــا قــالوا

أنكر ذلك، وقال: من لا تكون له يمين إلاّ بالبراءة من الإسلام، لا تسع الاستعانة به في الدماء والفروج والأموال، وأمر بإشخاصه، فلما أُدخل عليه سأله عن البيت فقال: إنّما قلت:

حُرمت مناي منك إن كان كلّ مــا أتاك به الواشون عنّي كما قالوا

فردّه بمواربته إلى عمله[41].

لقد غيّر الشاعر ألفاظ الشطر الأوّل (برئت من الإسلام إن كان كلّ ما) ووضع مكانها: (حُرمت مناي منك إن كان كلّ ما)، وأنكر أن يكون قال: (برئت من ...) ولجأ إلى الكذب، ومع ذلك فقد عدّ التبريزي هذا الكذب وهذا التغيير مواربة، ولا ينسجم تعريف المواربة عنده مع هذا التغيير، فلا تصحيف في الشطر ولا تحريف ولا شيء يمكن أن يردّ إلى الجرس أو صوت اللفظ حتّى نعدّه من البديع اللفظي، بل هو

40 - عدتُ إلى طبعات الديوان كلّها فلم أجده.

41 - الوافي 302.

تغيير كامل للشطر، إلاّ إذا أرد التبريزي المعنى اللغوي – لا الاصطلاحي- وهو معنى المخاتلة الذي أشير إليه قبل صفحات.

الشاهد الثامن:

حكي أنه أحضر أبو المقداد الهذلي عند جعفر بن سليمان الهاشمي فقال له جعفر: أنت القائل فيّ:

يا ابن الزواني مـــن بنـــي معاويـــه أنت لعمري مـــنهم ابـــن الزانيـــه

فقال: إنّما قلت:

يا ابن الرواثي مـــن بنـــي معاويـــه أنت لعمري مـــنهم ابـــن الراثيـــه

شرح ابن معصوم معنى قوله (الرواثي) فقال: هنّ اللواتي ينحن على موتاهنّ، وجعل ذلك التغيير في الألفاظ من المواربة[42].

وأنا أتساءل: هل كان جعفر بن سليمان بهذه السذاجة حتّى يقبل بالبيت البديل؟ ألم يتنبّه على أنّ المعنى الجديد في (يا ابن الرواثي...) ليس له نصيب من الحسن ولا الشاعرية ولا المدح ولا أيّ من ذلك؟ أوَ يُمدح أحد بأنّه ابن راثية؟ وعلى هذا الأساس فإنّ الشعر وتغيير ألفاظ البيت أو بعضها هنا ليس فيه أيّ نوع من البديع لا المواربة ولا سواها، هو تغيير وإنكار لما جاء في البيت الأوّل لا غير.

42 - أنوار الربيع 2 /300 – 301.

الشاهد التاسع:

حكي أنّ بعض الملوك كان له ولد اسمه (يحيي) ووزير اسمه (نجم)، وكان الوزير يهوى ولد الملك، فبلغ به الحبّ حتّى كتب على فص خاتمه (نجم عشق يحيي)، فوشى به بعض أعدائه إلى الملك، فدعاه ولامه على عشقه لولده وكتابته ذلك على خاتمه وتهدّده، فأنكر الوزير أنّه يعشقه وقال: إنّما كتبت في خاتمي دعاء وتوسلاً باسم سورة من القرآن وهو (بحم عسق نجّني) فصحّف.

ذكر ابن معصوم أنّ ذلك من لطيف المواربة[43]، والغريب أنّ كلّ ما في هذه القصّة ينضح بالكذب وبأنّ هذا الكلام مصنوع لينضمّ إلى أمثلة المواربة، وأوّل دليل على أنّه مصنوع أنّ الإشارة إلى مثل هذا الحبّ الذي يكنّه الوزير لولد الملك إنّما يعبّر عنها - إذا صحّ الأمر- بالمضارع فيقال: (نجم يعشق يحيى)، لكن إذا كانت بهذه الصيغة لن يمكن أن يُجعل تحت عنوان المواربة، إضافة إلى رزانة هذا الملك وجلالة قدره وهو الذي اكتفى بلوم وزيره المسمّى (نجم !) على عشقه.

الشاهد العاشر:

أبيات بعض البديعيّات المذكورة عنهم لمصطلح المواربة، مثل قول عزّ الدين الموصلي:

لأنت أفتح ذهناً في مواربة وبالتعقّل منسوب إلى النَّعم

مراده بـ(أفتح): (أقبح)، و(بالتعقّل): (بالتغفّل)[44]؟!

43 - نفسه 2/ 301.

44 - خزانة الأدب 2 /56.

وقول ابن حجّة الحموي:

يا عاذلي أنت محبوب لـــديّ فـــلا تـوارب العقل منّي واســتفد حكمـــي

و مراده بـــ(محبوب): (مجنون)، و(توارب): (توازن)[45]؟!

وقول شرف الدين المقري:

والعاذلان على من قـــدّه غـــصن كالبان هزّاً متى مـــا ناصـــحا اتّهـــم

يقول ابن معصوم: (هذا البيت بديع جداً، والموارية في قوله (كالبان هزّا) فإنّ الظاهر أنّ الكاف للتشبيه، والبان الشجر المعروف، و(هزّا) من هزّ الغصن يهزّه إذا حرّكه، والمراد: كلبان تثنية كلب، وهرّا بالرّاء المهملة من هرير الكلب وهو صوته دون نباحه من قلّة صبره على البرد)[46].

وما أشبه هذا البيت بالأبيات التي ألغز فيها ابن هشام مثل:

قال زيـــدٍ ســـمعتُ صـــاحبِ بكـــر قائـــلٌ قـــد وقعـــتُ فـــي الـــلأواءُ

على أنّ المراد جرّ (زيد) لأنّه مضاف إليه إذ إنّ (قال) مفعول به مقدّم وهي مصدر من المقال، وسوى ذلك من الكلمات المضطرب ضبطها لما فيها من الإلغاز[47]. وهي -بالتأكيد- لا تقع تحت عنوان (الموارية).

45 - نفسه .

46 - أنوار الربيع 2 /307.

47 - يُنظر ألغاز ابن هشام في النحو 16-17.

وقد يقرأ المرء أمثلة أخرى في كتاب ابن معصوم وآخرين –غَيْر التي ذكرتُ، لكنني لم أوردها في البحث لسذاجتها وقلة قيمتها، ممّا يجعلها غير لائقة بالذكر هنا[48].

ولو أردنا المواربة بحسب تعريف البلاغيّين لها لآثرنا أن نذكر عليها مثالاً من قصّة جرت بين ابن عباس ونافع بن الأزرق حضرها عمر بن أبي ربيعة، أورها هنا كاملة لأهميّة كلّ ما فيها.

روي أنّ ابن عباس رضي الله عنه كان يوماً في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق ... وهو يسأله عن مسائل في التفسير والحديث حتّى أضجره، فأعرض عنه، وإذا بعمر بن أبي ربيعة قد أقبل ... فسلّم وجلس فقال له ابن عباس: أنشدنا بعض شعرك، فأنشده:

أمن آل نعــم أنــت غــاد فمبكــرُ غــداة غــدٍ أم رائــح فمهجّــر

حتّى أتى على آخرها وهي من ثمانين بيتاً، فقال ابن الأزرق: عجباً منك يا ابن عبّاس، إنّا نضرب إليك أكباد الإبل، نسألك عن الدين فتُعرض عنّا، ويأتيك غلام مترف فينشدك سفهاً فتصغي إليه؟ فقال: ما أرى في قوله سفهاً، فقال: أليس قال:

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت فيخزى وأمّا بالعشيّ فيخسر

فقال ابن عباس: ليس هكذا قال، وإنّما قال:

رأت رجلاً أمّا إذا الــشمس عارضــت فيضحى وأمّــا بالعــشيّ فيخــصر

48 - ينظر أنوار الربيع 2 /303 وحولها.

.....ومع ذلك لم يجعلها البلاغيّون تحت عنوان المواربة، لعلّ ذلك كان تنزيهاً لابن عباس فجعلوها من المساجلة وسرعة البديهة بين الشعراء[49].

وهو ما أميل إليه كما أميل إلى جعل كلّ الشواهد السابقة من باب سرعة البديهة فهو بها أليق وهي به أولى، ولا أرى مصطلح المواربة مناسباً لا في معناه اللغوي ولا في معناه الاصطلاحي. ولا أرى أن يكون في البلاغة ولا في البديع، وهو مع كل ما ذُكر لم ينطبق على أيّ من تلك الشواهد من خلال تعريفه وحدّه المرسوم له.

وأخيراً يخلص البحث إلى ما يلي:

- لا تشكّل المواربة ظاهرة بلاغيّة، فالأمثلة عليها قليلة مكرورة في كتب البلاغة وقد أتيتُ على تلك الأمثلة جميعاً بالمناقشة والتفنيد أحياناً.
- تقوم البلاغة على الوضوح وكشف المعنى وجمال الصورة، وهذه الصفات تتناقص والمعنى اللغوي والاصطلاحي للمواربة:

ما منك من لم يقبل المعاتبه

وشرّ أخلاق الفتى المواربه

- قد تصلح المواربة صفة لبعض الشواهد التي يُعتمد فيها على الجانب الصوتي أو الجرس، فبين (ضاع) و(ضاء) في الشاهد السادس تشابه في الحروف وقرب في النطق بها، فلا تكاد الأذن تفرق بينهما، لكنّها لم تصلح عنواناً أو وصفاً للشواهد الأخرى، على الشكّ الذي بيّنتُه في بيت أبي نواس المذكور.
- وإذا صحّت في الشعر الذي يُلقى إلقاءً بحيث يظهر ما فيه من تغيير بين الألفاظ لمجرّد الاستماع، فمن أين لها أن تكون في الشعر المكتوب.

49 - كما فعل التنسي في نظم الدرّ والعقيان ص 159.

- لا يصحّ أن يطلق مصطلح (المواربة) على شيء ممّا جاء في القرآن الكريم، وقديماً نزّه عبد الله بن المعتز وغيره القرآن عن أن يكون فيه من البديع: المذهب الكلامي أو الاستخدام أو الإلغاز أو المغالطة، فتنزيهه عن المواربة أولى. (لأنّ ما هذا حاله إنّما يعرف بالحدس والنظر، والقرآن خالٍ من ذلك لأنّ معرفة معانيه مقرّرة على ما يكون صريحاً لا تحتمل سواه من المعاني ... فأمّا ما يعلم بالحزر والحدس فلا وجه له في القرآن[50].
- أكثر كتب البلاغة لم تذكر المواربة في أنواع البديع ولا في غيرها ممّا له علاقة ببلاغة العرب، ممّا يدلّ على أنّها لم تعبأ بها.
- عنوان هذا البحث (المواربة ...والبلاغة العربية) جاء فيه العطف من قبيل عطف الشيء على نقيضه:

أيّهـــا المـــنكح الثريّـــا ســـهيلاً عمـــرك الله كيـــف يلتقيـــان

50 - الطراز 3 /69.

المصادر والمراجع

- التبريزي، يحيي بن علي- الوافي في العروض والقوافي- تح عمر يحيي وفخر قباوة ، دار الفكر ، ط 3 ، 1979.
- الترمزي، محمد بن عيسى، الشمائل المحمّدية، دار الفيحاء، دمشق، ط 1، 2000.
- التنسي، محمد بن عبد الله- نظم الدّر والعقيان – تح نوري سودان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1980.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين- تح عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط4.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز- تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2004.
- الجرجاني، محمد بن علي، الحاشية على المطوّل- تح رشيد أعرضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007.
- حبنكة، عبد الرحمن، البلاغة العربيّة، دار القلم، دمشق، ط1، 1996.
- الحلبي، ابن الأثير، جوهر الكنز- تح محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- الحموي، ابن حجّة، خزانة الأدب وغاية الأرب- تح كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط1، 2001.
- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت.
- السجلماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع- تح علال غازي، مكتبة المعارف، الدار البيضاء، 1981.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت.
- السيوطي، جلال الدين، شرح عقود الجمان، مطبعة البابي الحلبي، 1938.
- الشايب، أحمد. الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 12، 1998.

- ابن عطية، عبد الحق. المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 2002.
- العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- الفرّاء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تح محمد علي النجار وأحمد نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط 2، 1980.
- القالي، إسماعيل بن القاسم، الأمالي، دار الجبل، بيروت، ط 2، 1987.
- القزويني، جلال الدين، التلخيص في علوم البلاغة، تح عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- القيرواني، ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983.
- المراكشي، ابن البناء، الروض المريع في صناعة البديع، تقديم عزة حسن، الرباط، 1985.
- المصري، ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تح حفني شرف، نهضة مصر بالفجالة، ط1، 1957.
- المصري، ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، تح حفني شرف، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1995.
- ابن المعتز، عبد الله، البديع، تح كراتشقوفسكي، دار الحكمة، دمشق.
- ابن معصوم، علي صدر الدين، أنوار الربيع في أنواع البديع، تح شاكر شكر، مطبعة النعمان، النجف، ط1، 1968.
- النحاس، أحمد بن محمد، إعراب القرآن، تح زهير زاهد، عالم الكتب، بيروت، ط 3، 1988.
- ابن هشام، جمال الدين، ألغاز ابن هشام، تح أسعد خضير، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط2، 1981.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/10/31